نوابغ المدرسة المارونيّة الاولى

المطران اسحق الشدراوي

بقلم حضرة الخوري بطرس غالب (تشئة)

ولما انتقل البطريرك جرجس عميرة الى دار البقاء حضر الشدراوي مجمع انتخاب خلفه البطريرك يوسف ابن حبيب العاقوري وكان مطراناً على صيدا وقد وجدنا اسم المطران اسحق في عريضة طلب التثبيت وفيها ذُكر انه مطران صيدا فاستنتجنا انهُ نُقل الى كرسي تلك المدينة ورسخ ذلك في ذهننا من سيامة الخوري مخائيل سعاده مطراناً على طرابلس في تلك السنة ١٦٤٤

وكان البطريرك الجديد كلفهُ ان يحمل الى الحبر الاعظم عرائض انتخابه وعبارة خضوعه وطلب التثبيت فاعتذر الشدراوي في بادئ الامر ولذلك ارسل البطريرك الخوري يوسف ابن ايليا ابن الطويل الحدثي (١) والراهب مر[illegible] دير مار شليطا مقبس ومن رهبنة مار انطونيوس وهذا الراهب كان شقيق المطران بطرس مخلوف

---

(١) عبد المسيح بن ايليا ابن الطويل الحدثي ارسله البطريرك يوحنا مخلوف الى رومية سنة ١٦٠٨ مع اثني عشر تلميذاً ثلاثة منهم قبرصيون وثلاثة من العاقورة وستة من اهدن. وبعد سنتين مات بعضهم ورجع بعضهم الى الوطن قبل ان يتمّوا علومهم بسبب الامراض وثلاثة فقط اكملوا دروسهم وعادوا الى الوطن وهم يعقوب من العاقورة الذي ترهّب في رهبنة مار فرنسيس وياسين والشماس عبد المسيح المذكور الذي تزوّج قبل ان ينيل درجة الكهنوت. وفي سنة ١٦٣٠ حضر الى بلاد صيدا المطران يوسف العاقوري ابن المطران بطرس ليجمع الذرية. جاء الى مزرعة عين ابل في بلاد بشارة التابعة مدينة صفد وجمع العشور وطلب من جماعة الشماس عبد المسيح الحدثية ان يزوروا بيت العذراء في الناصرة. ولمّا عاد من الزيارة الى عين ابل التمس منه جماعة الحدثية المذكورون ان يرسم لهم كاهناً فرقى الشماس عبد المسيح المذكور الى الدرجات المقدسة ودعاه يوسف. وبقي في هذه الخدمة الى سنة ١٦٤٥ اي السنة التي ارسله البطريرك فيها وهو المطران الذي رسمه كاهناً، الى رومية العظمى ليطلب لهُ التثبيت ودرع الرئاسة فوصلها في ٣ تموز سنة ١٦٤٥ ومن كثرة الضيق التزم هذا الكاهن ان ينتقل الى بلاد صفد. ولم نقف على سنة وفاته

ثم ما لبث الشدراوي ان عزم على السفر الى رومية (ما بين ١٦٤٦ و١٦٤٧) فكلفه البطريرك قضاء بعض مصالح تخص الطائفة لم نعرف من تفاصيلها شيئاً اكيداً انما استفدنا من الحوادث التي تبعت ان الضيق المتواصل كان قد اعيى البطريرك والطائفة من جرى تقلب الاحوال وتغيير الحكام فاوعز الى المطران اسحق ان يتوجه الى فرنسة عن طريق رومية ليلتمس تجديد حماية الملك المسيحي للطائفة المارونية كما فعل اسلافه فيما مضى . فالبطريرك عميرة طلب تلك الحماية بناء على تشويق الاب اميو المرسل اليسوعي فنالها في حين الضيق وقبله كان البطريرك يوحنا مخلوف اوعز الى المطران يوحنا الحصروني ان يسعى للحصول عليها فتوسط هذا الاسقف الكردينال دوبرون (Duperron) سفير فرنسة لدى الكرسي الرسولي (١ وسبق الاثنين الى التماس الحماية البطريرك مخائيل الرزي في سنة ١٥٧٥ فأرسل عريضةً الى الملك هنري الثالث يستنجدهُ ونسخة عريضته هذه ضمنها العلامة السمعاني الى الاوراق التي جمعها في المكتبة الفاتيكانية على ما ذكره هو نفسهُ في لائحة المخطوطات الشرقية

وكان قد زار قنوبين بعد تلك الايام السفير سانتري دِه برف ليقف على احوال الموارنة ويطلع عليها هنري الرابع مليكه وكان ذلك سنة ١٦٠٥

وبعد ان وصل المطران اسحق الى رومية باشر باصلاح الشحيمة (كتاب فرض الموارنة) هو والخوري يوسف الطويل كما صرّح هذا في مقدمة تلك الطبعة وساعد موفدي البطريرك على قضاء مصالح الطائفة ثم قصد الى بلاد فرنسة سنة ١٦٤٨ مسلحاً بمكتوبات من الحبر الاعظم الى الملك يطلب منه مساعدة الموارنة . واما المطران اسحق فلم يحجم عن ان يستندي أكف المحسنين ذوي الجود ومكث في باريس نحو سنة يسعى في غضونها للحصول على مبتغاه فتوسّل الى الملك ان يُجدّد حماية فرنسة للطائفة المارونية لان الجور كان قد ارهقها بل ارهق جميع كاثوليكيي الشرق والمرسلين . وقد وفقه الله الى نيل متمناه فدفعت اليه كفيلة الملك باسم ابنها لويس الرابع عشر براءة ملكية ذكرنا تعريبها في كتابنا «صديقة ومحامية» تاريخها ٢٩ نيسان ١٦٤٩ وبهذه البراءة يضع الملك في حمايته السيد البطريرك والاساقفة والاكليروس وعموم الشعب وخصوصاً

١) قال المطران يوحنا الحصروني في رسالته الى الكردينال الموما اليه ان علائق الموارنة والفرنسيين قديمة وهي ليست علائق صداقة فقط بل اواصر قرابة من عهد الصليبيين

الساكنين في جبل لبنان . وخصت البرآة المطران اسحق بتوصية لمأموري الدولة العثمانية ليبذلوا له المساعدة في كل اموره . وذكر على هامش البرآة انها « أعطيت بناء على توسط المطران اسحق رئيس اساقفة طرابلس »

وفي سفره هذا مرّ بسيراقوزة فمسينة واتى بحراً الى نابولي فرومية . ثم ذهب الى البندقية فبادوى وفرونه ومنتوا مقام دوق مانتوا وكان من المحسنين اليه ومن هناك اتى الى برغامو فميلانو حيث كلفه الكردينال فردريك بورُمِه مطرانها ان يدرّس السريانية وان يجدّد تنظيم مكتبة المدينة الغنية بانواع الكتب والمخطوطات

ثم اتى الى تورينو مقام دوق سابوديا المحسن الى اسقف قبرس الماروني لانه كان يلقب هو ايضاً بامير قبرس كما ترى في المذكرات المرتقية الى ذلك العهد . وفي تورينو مكث اكثر من اربعين يوماً قضاها في دير رهبان القديس عبد الاحد فبعثت اليه قرينة الدوق وهي شقيقة ملك فرنسة خدمةً (مالاً) وزوادته للطريق حتى باريس

ولا يذهلنك ان ترى المطران اسحق يلقب بلقب مطران طرابلس حتى بعد سيامة المطران مخائيل سعاده الحصروني على تلك المدينة لان تلك الالقاب لم تكن لها الزامات حقيقية ثابتة كما نبهنا الى ذلك مراراً . وان سبب ترك المطران اسحق مدينة طرابلس لا تخفى على الباحث فانه كان من اصدقاء الامير فخر الدين وانصاره كبار المسيحيين الذين اجتذبهم الامير بعطفه . فلما انكسرت شوكة الامير قام خصومهُ على انصاره فلاذوا بكسروان بحمى الخازنيين الذين ما زال الامير ملحم يكرمهم وينصت لاقوالهم . وكان الشدراوي باتفاق الرأي مع السيد البطريرك يسعى لتعزيز جانب الخازنيين لعلّهما يستطيعان ان يجعلاهم حكاماً للبلاد مستقلين عن الدولة فيستريحون وقد ذكرنا في « صديقة ومحامية » ما بذل من الجهد في هذه السبيل . فانهما ان لم ينالا للخازنيين الحاكمية فقد توفقا ان يحصلا لهم قنصلية فرنسة في بيروت

وقد سبق لنا ان ذكرنا في حياة البطريرك جرجس عميرة انشاء مدرسة اكليريكية في لبنان كانت قد تداولتها الخواطر وحثّ عليها الحبيس ده شاسطويل وراقت البطريرك جرجس عميرة فكتب الاب امير اليسوعي الى الحبر الاعظم يعرض له هذه الفكرة ويبيّن منافعها . ولا بأس ان عدنا الى هذا الموضوع ثانية فاسهبنا لما فيه من الفائدة . بدأ الاب امير يُعرب عن ارائه لتهدئة بال الموارنة حتى لايتوهموا ان المشروع

يقصد منه التسلط على طائفتهم وتغيير طقوسهم بل انهم اتوا البلاد ليكونوا بمنزلة مساعدين للكهنة في خدمة النفوس وارشادها في طريق الخلاص ولا هم يطمعون بوظيفة كنسية او رتبة شرفية او ولاية على وقف. ويظهر من هذا الكلام ان بعض ذوي الاغراض كانوا يسعون ليقاقوا فكر المارونة فيصورون لهم ان المرسلين الاجانب انما جاؤوا البلاد ليستبدّوا بكل امر ويخضعوا الطوائف الشرقية لسيطرتهم. وتلك اختلاقات لم يتفرد بها ابناء عصرنا بل وجدت في كل مكان وزمان

ثم تطرق الاب اميو الى ذكر المدرسة الاكليريكية فقال:

اظن انه سيروق جدًّا غبطة البطريرك ما كان يرغبه اليه بنوع خاص السيد ده شاسطويل وكانت رغبته هذه معلومة لدى اساقفة الطائفة ومقبولة لديهم ويرتئي الجميع ان من ذلك منفعة سهلة المنال قريبة الحصول وكان المجمع المقدس اراد ان يتمها من زمن بعيد وهو ان يُقام مدرسة اكليريكية لتهيئة الاحداث لمدرسة رومية وراوانًا ليس في جبل لبنان نفسه لسبب حملات الدروز بل في مدينة طرابلس عند سفح هذا الجبل

«وقد علمت من الكتابات الآتية من رومية انهُ يُستبقى شهريًا خمسون ريالًا لمدرسة المارونة الرومانية لان عدد التلاميذ ليس مكتملًا. فهذا المبلغ كاف لتربية عشرين تلميذًا في طرابلس حيث يستطاع تلقينهم القراطيق وآداب الكتابة في السريانية واللاتينية. اما الذين تظهر عدم كفائتهم لاكمال دروسهم اليانية فانهم يُعادون الى اهلهم دون تكبيد نفقات سفرهم والذين ترى فيهم الاهلية يمكن ارسالهم الى رومية او راوانًا لتعلم الفلسفة واللاهوت. ولما كنا قد فتحنا ديرًا في طرابلس واخذ البندقيون وغيرهم يظهرون لنا العطف وكان يعيش معنا الشماس موسى الماروني الطالب الدخول في رهبنتنا وهو يعرف جيدًا السريانية يقرأها ويكتبها حسنًا نستطيع من اليوم أن نمنى هذه المدرسة الاكليريكية. هذا اذا تمت سائر الشروط الاخرى وراق ذلك الكرسي الرسولي. على أنا نفضل أن لا نهتم نحن اليسوعيين باكل التلامذة ولبسهم بل فليهتم لهم السيد البطريرك قيمًا يعنى باعاشتهم وكسوتهم على طريقة بلادهم وله تدفع مرتبات التلاميذ كل ثلاثة اشهر من قبل المدير وأودّ أن نُؤمَر بتثقيف التلامذة حسب عادات رهبانيتنا حتى لا يقول المارونة اننا نأكل مال التلامذة ونحن نتفرغ بنوع افضل للعناية بهم متى جُرّدنا من هذا الهم»

لكن هذه الفكرة لم تتمّ لاسباب لم نتوصل الى معرفتها. فبقيت الحال على ما كانت عليه ولم يفُز تلاميذ رومية بمنيتهم هذه لاننا لا نرتاب في تحبيذهم المشروع بعد

ان رأوا كثيرين من الطلبة يعودون الى اوطانهم قبل نهاية علومهم سواء كان لمرض طرأ عليهم او لاختلاف المناخ والمعاش او لحنينهم غير المعقول الى مسقط رأسهم. فكان المجمع المقدس ينفق نفقات وافرة ليحصل على نتيجة لا توازي ما يتكبده في هذا السبيل

وما كان موافقاً في تلك الاونة لا يزال كذلك حتى اليوم لان الاسباب التي حملت على بسط هذا المشروع ما برحت هي تدفع الى تحقيقه ليقوم مقام المدارس الاكليريكية العديدة التي يختلف نسق احداها عن الاخرى ويفترق تعليم بعضها عن بعض. ولا نتردد في القول ان المطران اسحق الشدراوي كان ممن يرغبون في ان تبرز هذه الفكرة الى عالم الوجود وتنفذ مع ما تتطلبه من التعديل ان وجد ثمت موجب لذلك

وكان المطران اسحق بعد عوده من بلاد الفرنجة قد استأنف اعماله الرعائية زائراً كارزاً مثبتاً مزيلاً الخصومات. وحول سنة ١٦٥٢ زار جهات صيدا وتفقد شؤون الرعية ونعلم ذلك من رسالة للاب يوارسون رئيس رسالة اليسوعيين في سورية في ذلك الوقت ذكر فيها اعجوبة صنعتها والدة الله المجيدة في معبدها في دربشين واثبت حقيقة حدوثها الاستاذ اسحق حين اقامته في صيدا

واليك حكاية هذه الاعجوبة: «حدث ضاعون في تلك الحقبة فهرب السكان عن بكرة ابيهم ولما درى بذلك تركيان كانا مقيمين على مقربة من القرية بادرا الى الكنيسة فخلع احدهما الباب ووثب الآخر على صورة السيدة العذراء وكانت صغيرة ومزقها ارباً ارباً لكنه ما تم ان قضى نحبهُ حالاً في تلك الساعة في المحل ذاته والاول ما كاد يبلغ الى بيته حتى رأى حصانه قد فطس في الليل السابق. وهكذا نال كل واحد منهما جزاء فعلته على قدر ما اشترك بهذا التهجم على صورة والدة الله»

ثم ان السيدة نجت من الوباء احد التجار في صيدا فاصطنع صورة اخرى ووضعها في محل الاولى (نقلاً عن كتاب الاب غودار «مريم في لبنان» ص ٥٢)

وليس عندنا حادث مخصوص نذكره في تلك الآونة سوى ما جرى لابي رزق البشعلاني وعيلته مع حاكم طرابلس (١٦٥٣–١٦٥٤) نرويه باختصار عن الاسانيد التي وقعت في يدنا:

ان ابا رزق ينتسب الى قرية بشعلي مسقط رأسه اتخذه حسن باشا والي طرابلس

كاخيةً له (١٦٤٣) ثم أُقيل بعد عود محمد باشا الارناووط الى الولاية على انهُ عزل ثانيةً في سنة ١٦٤٩ وتولى طرابلس عمر بك فاستعاد ابا رزق الذي نصب اخاه ابا صعب شيخاً على جبة بشري وفي سنة ١٦٥١ كان لا يزال متسلماً امور الايالة الى ان تغلب عليه ابن الصهيوني فنصب مكانه وصادره واضطهد اعوانه. وفي سنة ١٦٥٣ قبض محمد باشا الارناووط على الشيخ ابي رزق لوشايةٍ شكوهُ بها انه جمع بني حبيش في داره لكي يفتكوا بمحمّد باشا ولم يكن داعي الاجتماع سوى الاحتفال بعرس احد اقارب بني حبيش فامر الباشا بالقبض عليهم جميعاً وبسجنهم في القلعة وكانوا تسعين نفساً. اما دار ابي رزق فنُهبت واموالهُ سُلبت ثم ورد الخبر بعزل محمد باشا فتوجه الى حماة لجباية الاموال فاستصحب ابا رزق والسجناء. ثم دعا ابا رزق للحساب عما دخل عليهِ من المال وخوّنه باثني عشر الف غرش على ان الوالي الجديد قره حسن اعاد الحساب فوجد ان المكسور على ابي رزق اربعة آلاف وخمسمائة غرش فقط فدفعها عنه ابن الصهيوني وأخلى سبيله وسبيل السجناء. وكان عزم الوالي الجديد ان يعهد اليهِ بتدبير اموره لكن وصول قبجي من قبل الباب العالي حاملاً الامر بقتل ابي رزق حال دون رغبة قره حسن فاشار عليهِ ان يفتدي حياته فاذعن الى رأيهِ ودفع الف غرش للقبجي فعاد هذا الى الاستانة. اما ابو رزق فرجع الى طرابلس مع الوالي الجديد والتزم منه جبلة واللاذقية وارضى اخاه قبل ان يسافر الى محل التزامه ان يهرب باولاده الى بلاد ابن معن فشقّ ذلك على الباشا فخاف ابو رزق ان يضرّه فتزوج بامرأة موسى باشا. وفي سنة ١٦٥٤ جُعل بشير باشا نائب حلب وزيراً فقصده ابن علم الدين وابن الصهيوني ليعدّا الركبة على الامير ملحم الذي كسرهم عند وادي القرن. واما الوزير الجديد فتوجه الى الاستانة ولما وصل الى ادنه تقدمت اليهِ شكاوى بخصوص ابي رزق انهُ من مناصري ابن معن وانهُ ارسل اولاده الى حكمه فامر الوزير بقتله وجرى ذلك في اوائل اذار من تلك السنة في مدينة ادنه»

اما حالة الموارنة عموماً فوصفها القنصل فرنسوا بيكه بقوله: «قد اوقرت ضرائب الاتراك الفاحشة كواهل الموارنة وهم هدف دائم لمظالمهم. والعذاب يلقاه الاكليرس اشد واعظم ولاسيما في جهة بشري الخاضعة لباشا طرابلس حيث الاديار خربت وبادت»

ولم يرَ القنصل علاجاً نافعاً لهذا الحال سوى حرمان الاتراك الولاية وتسليمها الشيخ ابا نوفل الخازن وكان البطريرك متفق الرأي مع القنصل وكتب مثله الى الملك يطلب الطلب نفسه. وقد كلّف هذه المهمّة الخوري سركيس الجمري الذي كان من تراجمة البلاط الملوكي ومعلّمي اللغات الشرقية في باريس (وقد سيمي مطراناً في ما بعد) لكنهُ لم ينجح في نيل ما طلب من الملك فاقتضى الحال بعد عوده ان يرسل المطران اسحق الشدراوي واليك مختصر رحلته نقلًا عما كتبهُ هو نفسهُ حفظاً لهذه الوقائع (١

سافر الشدراوي باسم البطريرك يوحنا الصفراوي ليأتي بالقنصلية على مدينة بيروت للشيخ ابي نوفل الخازن من لدن ملك فرنسة فركب في ٦ شباط ١٦٦٠ من ثغر طرابلس سفينة فرنسية ربانها يُدعى البارون ريفردوى فبقي في البحر ٢٧ يوماً وصل بعد انقضائها الى ليفورنو. ثم بعد شهر قصد الى بيزا ومنها الى فلورنسة وكان حاكمها الغرندوق فرديناند الثاني ده مديسيس فبرح تلك العاصمة الشهيرة الى سيانا فانتهى الى رومية في آخر يوم من شهر نيسان من تلك السنة. والغاية من تعريجه على رومية كانت ان يلتمس من البابا ان يصدر مكاتيب توصية الى الباشا الى ان الخازن يقدمها الملك فرنسة حتى يرضى بتعيين ابي نوفل قنصلًا للامة الفرنسية في بيروت

وما مضى نصف شهر على اقامته في رومية حتى فشا وبا الطاعون فيها فحجر على سكانها واتخذ مثل هذا التدبير في سائر بلاد النصارى. فاضطرّ المطران اسحق ان يلبث في رومية سنتين لا نعلم حقيقة ما اتاه في خلالها من الاعمال انما نرجح انهُ تخصص بالتاليف فانا نعرف من تصانيفهِ كتاب لاهوت وضعهُ على نسق الاسئلة والاجوبة بحث فيهِ عن الخلق واعمال الايام الستة والفردوس الارضي والخطيئة الاصلية والفردوس والجحيم والمطهر وقيامة الموتى والدينونة الاخيرة وله مقالة لاهوتية مخطوطة في مدرسة مجمع نشر الايمان ولعلها تلك التي وجدناها في دير سيدة اللويزة

ولما كانت غيرته شديدة على طائفته اعتنى كل الاعتناء بامورها في مركز الرئاسة العليا وسعى لينال من الحبر الاعظم الرسائل اللازمة للملك العريق في المسيحية فلم يبخل عليه بها

١) اطلب «رحلة المطران اسحق الشدراوي الى فرنسة في المشرق (٣ [١٨٩٩] : ٩٣٩–٩٤٥) وهناك صورتهُ

ولما تقلّص ظلّ الوباء وفُتحت الطرق برح الشدراوي رومية الى تُرْني فَسبولتو فنولينو فكامرينو فاشراتا ومرّ بريكاناتي الى لوريت حيث يكرّم بيت العذراء مريم عليها اشرف السلام واقام هناك اربعة اشهر الشتاء بسبب الثلج والبرد وكان متقدّماً بالسن اي ابن سبعين سنة ولهذا لم يستطع ان يسافر مستعجلاً . وبعد انقضاء الشتاء رحل الى أوزيمو وبازي وانكونا وسينيغاليا وسيزارو وريميني وراونّا حيث مكث اربعين يوماً في المدرسة التي انشأها القس نصرالله شلق الحاقوري فرقّى مدبّرها القسّ متى بن مخائيل الباني الى الكهنوت وجرجس المقير وبولس الى الشدياقية وكان قد استصحبها قبل هذه السفرة من كسروان ووضعها في تلك المدرسة

ثم رحل من راونّا الى ايمولا فبولونية وهناك ثبّت الاحداث والفتيات على مرّتين فبلغ عدد الجميع نحو ٥٥٠٠ ورسم اكثر من ١٥ شماساً وشدياقاً فأكرمت وفادته في تلك المدينة الى ان برحها الى فلورنسة في هودج استأجره لهُ وكيل المطران ليريحه في سفره . ومكث في فلورنسة ١٧ يوماً في دير رهبان القديس عبد الاحد . وبعد تلك الاستراحة توجه الى بيزا بطريق النهر وواصل السير الى ليفورنو حيث قضى ٢٧ يوماً سافر بعد انقضائها الى مرسيلية على «غليون» انكليزي

واقام في مرسيلية ٤ ايام في دار الخواجه بدوق (ربما بُطق) ابي السيدين كرم واخيه انطون القاطنين بيروت في ذلك الوقت . ثم برح مرسيلية الى افينيون (وكانت المدينة لم تزل ملك البابا) فمكث فيها ١٧ يوماً عند رهبان القديس مار عبد الاحد . ومنها ركب مركباً على نهر الرون الى ليون فبلغها بعد عشرة ايام وقضى فيها مدة سام في خلالها عشرة قسوس يسوعيين وقسًّا عالميًّا . وبعد ذلك سافر الى شالون في النهر وفي تلك المدينة استأجر عربة اوصلته الى اورسّر ومنها الى باريس حيث اقام شهرين ينتظر عود الملك من الحرب (ولم يذكر اي حرب) . ولمّا عاد الملك حظي المطران اسحق بمقابلته بعد ثلاثة ايام فنجح في مسعاه ونال الرتبة القنصلية للشيخ ابي نوفل وبراءتها فخفّ مسرعاً الى مرسيلية مغتبطاً بنتيجة عمله ولاسيما حينما كان يتذكر انه قضى سنة كاملة في باريس في سفرته الاولى قبل ان ينال تجديد الحماية في سنة ١٦٤٩

ولما وصل الى مرسيلية وجد سفينة فلمنكية مسلحة بستة وثلاثين مدفعاً فانتظر ميعاد سفرها ١٤ يوماً فركب البحر ووجهتُهُ طرابلس الّا ان الريح عاكست السفينة

تجاه جزيرة كورسيكا فردّتها الى ميناء ليغرنوتم ما لبثت ان سافرت الى مالطة فوصلتها بعد ستة ايام واقام المطران في تلك الجزيرة خمسة ايام سافر بعد انقضائها الى طرابلس فاستقام سفره ٢٢ يوماً دون ان تزعجهم الريح

ولما بلغ الى طرابلس استأجر زورقاً بسبعة غروش وجاء ليلاً الى جونية ومنها الى زوق مصبح حيث تقيم عائلته. ففرح الشيخ ابو نوفل بوصوله فرحاً عظيماً لاسيما مذ عرف انه آتٍ اليه بالقنصلية وصار له استقبال حافل في كسروان حيث «فلاح كرم الرب بنشاط وعزّز النصرانيّة لا بتعليمه وفضائله وغيرته فقط بل بمساعيه المشكورة لتأييد طائفته وتفريج كربتها»

ولمّا شاع خبر نجاح المطران اسحق اخذ آل خازن يستعدون للاحتفاء بالرتبة التي حصلوا عليها فقُرّر ان تُتلى البراءة في كنيسة بيروت حيث مركز القنصلية. وبعد ثمانية ايام احتشد في الكنيسة الفرنج مع جمع غفير من الموارنة فقرأ امامهم البراءة المؤذنة بتعيين الشيخ ابي نوفل قنصلاً للامة الفرنسية وكان يقال له قنصل الملك في تلك الايام ثم خطب مهنئاً وبارك البزّة الرسمية وهي حلة حمرا والسما القنصل الجديد بين هتاف الحاضرين وتهليلهم. (انظر خبر ابن القلاعي في كتابه «صفة بحيرة»)

وفي ذلك اليوم صنع الشيخ ابو نوفل وليمة حضرها الفرنج والنصارى والمسلمون وكان الفرح شاملاً

وتسلّم القنصل الجديد مهامّ وظيفته في اليوم العشرين من كانون الثاني سنة ١٦٦٣. ولا حاجة بنا الى اطراء صفات الشيخ الكريم فان المطران اسحق الشدراوي يصفهُ بانهُ «قائم بناموس النصارى في نظر الله والاميرين احمد وقرقماز معن»

وقد انهى رواية سفراته بتعداد البابوات الذين رآهم وحظي بمخاطبتهم وهم اقليمس الثامن (١٦٠٤–١٥٩٢) ولاون الحادي عشر (١٦٠٥–١٦٠٤) وبولس الخامس (١٦٢١–١٦٠٦) واوربانوس الثامن (١٦٤٤–١٦٢٣) واينوشنسيوس العاشر (١٦٥٥–١٦٤٤) واسكندر السابع (١٦٦٧–١٦٥٥) وكان لا يزال متربعاً في كرسي الرئاسة البطرسية في الوقت الذي كتب فيه الشدراوي خبر رحلاته

اما البطاركة الذين تولوا الكرسي البطريركي في ايامه فهم سركيس الرز ويوسف الرز ويوحنا مخلوف الذي رسمهُ قسًّا وخوريًّا ومطراناً ثم البطريرك جرجس عميرة

ويوسف بن حليب العاقوري ويوحنا الصفراوي وجرجس البسبعلي ابن الشيخ رزق الله من اعيان زاوية طرابلس

وفي سفره الاخير (١٦٦٠) كان البطريرك اوصاه بان يتعاون مع يوسف الكرمداني على طبع القنقيط (اي الصلوات الفرضية على مدار السنة) في رومية العظمى كما انهُ كان قد ساعد الحاقلي في طبع قسم منه سنة ١٦٥٠

وفي تلك السنة التي استلم فيها الشيخ نوفل القنصلية نقل الله عبده الى راحة الصالحين في مدينة جبيل وكانت الاسفار والاعمال الرعائية قد اضنكته فدفن في مار يعقوب خارج المدينة فعمّ الحزن عليهِ نظرًا لما كان متحلياً بهِ من الفضائل والعلم

وقد مدحهُ جميع الذين عرفوه. فالبطريرك اسطفان الدويهي قال عنه «انه تعب في الوعظ وفي بنيان النصرانيَّة في كسروان» وقال عنهُ في رسالته الى المطران جرجس حبقوق عن العشور «ولا مطارنة هذا الزمان اجلّ من المطران اسحق». ومعلوم ان كان يوجد في ذاك الوقت مطارنة اجلّاء للغاية. فانه كان قاعد بذاته بدون رعية. ووصفهُ المطران جرجس حبقوق بقوله «وكان متسلماً رعية ومهتم بخلاص النفوس لانه كان معلماً ثقيلاً (بارعاً جدًّا) وعند وفاته اولاده استولوا على متخلفاته ولم يعارضهم احد بشيء لا بطريرك ولا غيره»

اما الاب مانيليه فقد سبق لنا ذكر ما نعته به من انه عالم جليل واسقف فاضل حكيم رصين

وقال عنه الاب برارّون في رسالته المؤرخة في سنة ١٦٥٣ انه متفوق بالعلم والفضيلة. ويدلُّك على تحليهِ بهذه الصفات تكليف البطاركة واعيان البلاد اياه قضاء المهمات الصعبة سواء كان في وطنه او في البلاد الاوربية وانكبابه مع كل ذلك على التصنيف من يوم تضلّع من دروسه ورأى انه يستطيع ان يفيد بني جلدته والاوربيين انفسهم وقد سبق لنا ذكر مؤلفاته ونزيد عليها كتاباً له في الاخلاق ذكره المؤرخون ولم نقف لهُ على نسخة

ولما احتفل في رومية بمرور مائة سنة على تأسيس المدرسة المارونية عُدَّ الشدراوي بين نوابغ تلك المدرسة وخُصّص لهُ تقريظ في المجموعة التي طبعتها المدرسة بتلك المناسبة وقد اخذنا عنها نص ذلك التقريظ واليك نصه وترجمته :

Vel hoc uno maximus—Quod Frederico Cardinali Borromeo percarus — In Mediolanensi Accademia— Syriacis et Jurisprudentiæ disciplinis excultus— Eam nactus est gloriam—Ut litterarum parentem dixerint non alumnum — Merito igitur ambigas — Majoremne Insulis contulerit — An retulerit dignitatem.

وهذه ترجمتها :

«حسبه مجداً ايلاً انه كان عزيزاً جداً لدى الكردينال فردريك بورمه ولما كان متضلعاً من اللغة السريانية والعلوم القانونية قد بلغ درجة من الشرف في الجامعة الملية في ميلانو حتى قيل عنهُ انه ابو الاداب لا رضيعها. فيحق لك ان تحجم عن الحكم في ما اذا كان (الشدراوي) نال من الجُزُر فخراً اعظم ام جلّلها بحلة ابهى واجمل»

نفعنا الله بذكرى فضائله وجدّه وعلمه

فائدة : قد اطلعنا على مقالة يراعة الاب فكتاري اليسوعي الاستاذ في المعهد الكتابي استفدنا منها ان المطران سركيس الرزي مطران دمشق الذي ادعاه مجمع نشر الايمان المؤسس حديثاً لدى الكرسي الرسولي لفحص كتب الشرقيين قبل طبعها قد عين رئيساً للجنة لفحص نسخ الكتاب المقدس الخطية العربية وكان الاعضاء منصور شلق الماقوري والابوين هيلاريون رنكاتي وتوما ده نوفارا . ولما توفرت الصعوبات قرر المجمع المقدس ان تترجم النسخة التي قررها المجمع التريدنتيني (Vulgate) وعهد بالعمل الى اللجنة المرقومة التي كانت تجتمع مرتين في الاسبوع في دار المطران سركيس الرزي المذكور في رومية وصدر امر بان يسهّل لهذه اللجنة الاطلاع على المخطوطات الموجودة في المكاتب الفاتيكانية والمادبية والتبسيا . ولما توفي المطران المذكور ٩ اب ١٦٣٨ كان قد صحح ستة كتب حفظت في مكتبة كازاناتي . فاقتضى التنبيه الى ذلك لزيادة الفائدة

تصحيح غلط . وقع غلط مطبعي في ذكر تاريخ سيامة الشدراوي مطراناً فقد جاء انهُ سيم سنة ١٥٢٩ والصحيح ١٦٢٩